الاول أن تقول « فلان أخيف » بدل « فلان إحدى عينيه زرقاء والاخرى كحلاء » وفى الثانى « هؤلاء الاخوة أخياف » بدل « هؤلاء الاخوة من أم واحدة وآباء شتى » ، وقد كسبنا بذلك الوقت والسرعة ولفظة جديدة ، وهذه الكلمة لا أحد يقول « حتى الاستاذ أحمد أمين » إنها نافرة أو ثقيلة على الجيل الحاضر ، وقد استعملها ابن زيدون فى قطعة جميلة من شعره .

فقال صديقى الكاتب الكبير فى صيغة التحدى والتهكم ، إنك بذكر هذا اللفظ أطلت فى الوقت واضعفت من السرعة لانك ستشرحها للقارىء بهذه المعانى التى ذكرتها ، فكان خيراً لك وله لو أنك اكتفيت بالشرح عن المشروح فلم تذكر اللفظ الواحد ثم تتبعه بجملة شارحة ، فقلت أنا أولا لا أسلم بضرورة الشرح فان القارىء واحد من اثنين ، قارىء يقظ يقرأ ليفهم ويفتش عن كل كلمة ولا يكتفى بالفهم الاجمالى ، وهذا القارىء عندما يجد هذه الكلمة — إذا لم يكن يعرفها — سيبحث عنها فى القاموس حتى يعرفها ، ومن المرجح أنه بعد ذلك لن ينساها ، وهذه وحدها فائدة أخرى ، والقارىء الثانى يمر على الكلام مرا و يكتفى بالفهم الاجمالى ، فهذا ليس يهمنى أن أشرح له ، ولعله هو أيضا لا يهتم لشرحى ، وعلى فرض التسليم بضرورة الشرح لهذه الكلمة ومثلها ، فان الشرح لن يكون إلا بمقدار ما تشيع هذه الالفاظ وتعرف لجمهور القارئين وعند ذلك تترك وحدها فيفهمها القارىء ونكسب نحن وهو الوقت والسرعة وألفاظاً جديدة تزيد فى لغتنا وتغنيها ، ثم ذكرت له بعضاً من الألفاظ والجمل استعملها هو بدءا وشرحها فى أول ما استعملها وأصبحت الآن مفهومة لكل قارىء وشائعة على أقلام الكاتبين وألسنة الناطقين حتى كأنها تستعمل منذ مئات السنين

ولعلنا نجد فى المقالات القادمة للاستاذ أحمد أمين أننا فهمنا من كلامه غير ما يقصد هو ، وعندئذ فنحن على وفاق ، أو فى « خلاف لفظى . . . » كما يقول الاصوليون

« محمود . ع . الشرقاوى »
عالم من الازهر

(الرسالة) جاءنا من الدكتور عبد الوهاب عزام مقاله الثانى فى الرد على الاستاذ أحمد أمين فى موضوع التجديد . وسننشره فى العدد القادم .

فلسفة كانت

للاستاذ زكى نجيب محمود

كانت الفلسفة وهى فى مهدها مطمئنة إلى تلك الأداة التى اتخذتها سبيلا إلى تفهم الكون ومايحوى من سر مكنون ، فكانت تأتمن هذا العقل الانسانى وتثق به وثوقاً لا يعرف الشك ، ولكنها ما لبثت أن اشتد ساعدها واستقامت على قدمين راسختين ، فانقلبت على تلك الأداة نفسها ، وداخلها الريب فى أمانتها ودقتها فيما تنقل إلى ذهن الانسان من صور العالم المحس ، فتناولتها بالبحث والتحليل

وتظن أن (لوك) كان أول من تصدى لذلك البحث فى تاريخ الفكر الحديث ، وقد انتهى بعد بحثه الطويل إلى إنكار الآراء الفطرية (Innate ideas) التى يقول دعاتها أنها تولد مع الانسان كمعرفة الخير والشر مثلا ، وأكد أن العقل عند ولادة الطفل يكون كالصفحة البيضاء ، خالياً من كل شىء ، وقابلا للانفعال بالبواعث المختلفة ، فاذا ما مرت به تجارب الحياة المختلفة ، تركت فيه آثاراً لا تمحى ، وطريق تلك التجارب الى العقل هى الحواس وحدها ، وليس فى حنايا العقل أثر واحد لم يسلك طريق الحواس أولا ، فالآثار الخارجية تنتقل إلى الذهن فى إحساسات مختلفة ، ثم تولد هذه الاحساسات شتى الآراء والافكار . ومادامت الأشياء المادية وحدها هى التى يمكن أن تنتقل عن طريق الحواس ، إذن فكل معلوماتنا مستمدة من الاجسام المادية دون غيرها . ومعنى ذلك أن المادة عند (لوك) هى كل شىء

ثم جاء (بركلى) وخطا بعد ذلك خطوة جريئة . فقد سلم بمقدمات لوك ، ولكنه اختلف وإياه فى النتيجة . ألم يقل لوك بأن معلوماتنا جميعاً مشتقة مما يجىء عن طريق الحواس ؟ إذن فنحن لا ندرى عن الشىء الخارجى إلا الاحساسات التى تنبعث الينا منه ، والافكار التى تتولد من هذه الاحساسات عند وصولها الى الذهن . خذ تفاحة مثلا ، فهذا لونها يصل اليك ضوءاً عن طريق العين ، وهذه رائحتها تصل عن طريق الأنف ، وذاك طعمها تعلمه عن طريق الذوق ، وذلك ملمسها وشكلها يصلان

اليك عن طريق أعصاب اليد ؛ فاذا تناول هذه التفاحة كفيف البصر ؛ علم عنها كل شيء إلا لونها ، وإذا كان فاقداً لحاستى الشم والذوق ، اقتصرت معرفته على الشكل والملمس ، فاذا فرضنا أن أعصاب يده فقدت عملها أيضا ، أنكر صاحبنا وجود التفاحة فى يده مهما قدمت إليه من وسائل الاقناع . فلولا الحواس لما كان للأشياء الخارجية وجود بالنسبة الينا على الاقل . فالحواس هي التى كونتها . ولذلك لم يتردد بركلى فى انكار المادة انكاراً تاماً . ولا يعترف بوجود شيء الا حقيقة واحدة يحسها فى نفسه وهى العقل

أجهز بركلى على المادة فمحاها من صفحة الوجود ، وأشفق على العقل فسلم به ، ولكن جاء بعده هيوم ، فأبى أن يقف عند هذا الحد المتواضع من الانكار ، وسارع إلى العقل بمعوله فألقاه فى هوة العدم ! ما هذا العقل الذى يتشبث بوجوده بركلى ؟ إبحث فى نفسك بحثاً باطنياً وحاول أن تعثر على ذلك العقل باعتباره ذاتاً مستقلة ، فلن تعود بطائل ، ولن تصادف فى نفسك إلا سلسلة من الافكار والمشاعر والذكريات يسوق بعضها بعضاً ، فليس ثمة عقل ، ولكنها عمليات فكرية وصور ذهنية لا أقل ولا أكثر . وإذا فقد انهار العقل كما انهارت المادة من قبل ! وهكذا قوضت الفلسفة بفؤوسها كل شيء ، ثم وقفت بين تلك الانقاض الخربة لا تجد وقوداً يذكيها ، فقد ضاع العقل وضاعت المادة ولم يبق لها منهما شيء ! ؟

ولكن الله قيض لها فيلسوفنا العظيم « عمانوئيل كانت » فأعاد البناء من جديد ، وشيده على أسس قوية ثابتة لاتزال قائمة حتى اليوم . فقد أنكر بادىء ذى بدء ماذهب اليه لوك والمدرسة الانجليزية انكاراً تاماً ، لان التجارب التى يقول عنها لوك إنها مصدر معرفتنا جميعاً ، لايتحتم أن تلازمها الصحة دائما ، فهى ان صحت نتائجها اليوم فقد تخطىء غداً ، فضلا عن أنها تقتصر على الجزئيات ولاتتعداها الى التعميم الذى ينزع اليه العقل بطبيعته ، ومما لاريب فيه أن لدينا من الكليات العامة مايستحيل عليه الخطأ ، كأن نقول مثلا ان ٢ × ٢ = ٤ فهذه حقيقة لم نعتمد فى تحصيلها على تجربة خارجية ، وانما اكتسبت ضرورتها من طبيعة عقولنا ، فليس العقل الانسانى سلبيا ، ليس قطعة من الشمع تولد خالية ثم تخط فيها التجارب ما تشاء كما ذهب لوك ، كلا ولا هو اسم يطلق على سلسلة الحالات العقلية كما ادعى هيوم ، انما هو عضو فعال ، يتناول الاحساسات التى تأتى اليه من العالم الخارجى فيؤلف بينها ، ويكون منها الافكار المختلفة ، ويصبها فى القالب الذى يشاء . العقل الانسانى قوة ايجابية تعمل على تنظيم ملايين التجارب التى تصادف الانسان فى حياته ، وتخلق منها وحدة فكرية منظمة ! ولكن كيف ؟

يجتاز العقل فى ذلك مرحلتين : الاولى هى الانتقال من مجرد الاحساس إى وصول الأثر الى الذهن ، الى الادراك ، أى فهم ذلك الاثر المعين . والثانية هى الانتقال من هذه المدركات الجزئية الى المعقولات والكليات العامة . وسنفصل هذا الاجمال فيما يأتى :

تأمل نفسك لحظة ، تجد عدداً من المؤثرات لايحده الحصر يندفع اليك ويتسلل الى ذهنك عن طريق الحواس ، فهذه عشرات الاصوات تنتقل الى اذنك من جهات مختلفة ، وتلك آلاف المرئيات تبعث ضوءها الى عينيك ، وهاهو ذا جسمك يحس فى كل جزء من اجزائه بالمؤثرات المختلفة : يحس نعومة ملابسك أو خشونتها . كما يحس الحرارة والبرودة . فهذه الاحساسات العديدة المختلفة التى تصل الى ذهنك من ابواب متباينة ، تسبح فى العقل صماء دون ان يكون لها معنى خاص إلا اذا تألفت أجزاؤها وارتبطت بمكان وزمان ، وذلك التأليف والربط لابد لهما من قوة ايجابية ، هى العقل . فانت قد ترى اللون الاصفر وتحس الشكل الدائرى ، وتشم رائحة معينة ، وتذوق طعما خاصا ولا يكون لكل تلك المؤثرات مدلول واحد ، الا اذا جمع العقل هذه الاشتات وربطها بمكان خاص — فى جسم برتقالة مثلا — وعندئذ ينتقل احساسك الى ادراك لهذا الشيء المعين فالواقع ان الاحساسات الأولية ليست الا مؤثرات متفرقة تجيء الينا من الخارج . ولا يكون لها معنى بذاتها ، وهذا ما يشعر به الطفل فى اول حياته العقلية . اذ يرى لون البرتقالة ويلمسها بيده ، ويشمها ويذوقها . ولكنه مع ذلك لا يعرفها فاذا ما تمت قواه العقلية ، اخذت هذه المجموعة من الاحساسات تتجمع وترتبط بهذا الشيء ، وبذلك ينتقل حسه الى مرتبة المعرفة والادراك ، ولا تعود صفات البرتقالة تؤثر فى ذهنه مستقلا بعضها عن بعض كما كانت الحال من قبل ، بل تنتقل الى ذهنه كتلة متحدة مترابطة لا انفصال فيها . ولكن كيف أخذت تتجمع هذه الصفات فى الذهن حتى تكون منها كل

لا يتجزأ له مدلول خاص ؟ هل تم ذلك بطريقة آلية ، أى اخذت تتراص بجانب بعضها البعض . فسارع لون البرتقالة ووقف بجانب الرائحة والطعم والشكل . حتى تكونت صورة البرتقالة فى الذهن ، دون ان يتدخل العقل فى هذا التكوين ؟ هنا يجيب (لوك) ومدرسته بالايجاب وينكره (كانت) كل الانكار ، ولا يفهم كيف تتحد جزئيات الاحساس التى سلكت الى الذهن الف سبيل وسبيل من تلقاء نفسها . الا ان يكون هناك قوة تنظم هذه الفوضى الحسية ، قوة تؤلف بينها وتوجهها فى الطريق التى تريد ، قوة تشكلها وتصبها فى قالب المعنى . هى قوة العقل . وآية ذلك ان الانسان يأتيه فى كل لحظة آلاف الاحساسات ، ولكنه لا يقبلها جميعا ، بل ينتقى من ذلك الجيش الجرار من الدوافع والمؤثرات مايلائم حالته فى تلك اللحظة المعينة ، وهذا دليل قاطع على فاعلية العقل ، ولو كان الأمر يتم بالطريقة الآلية التى زعمها لوك وهيوم ، لما كانت هناك أفضلية لاحساس على آخر ، بل يرغم الانسان على قبولها بأسرها ، فكل صوت يقرع الاذن لابد أن يصل الى الذهن ، وهكذا فى سائر الحواس . ولكن ليس هذا هو الواقع . فهاهى ساعتى تدق على مكتبى أثناء كتابة هذا المقال ، ولكنى لاأسمعها لأنى لاأريد أن أسمعها فاذا ماتوجهت بارادتى الى استماعها ، تم ذلك على الفور مع أن صوتها لم يرتفع عن ذى قبل . وقد تكون الأم نائمة مستغرقة فى نومها ، فتحدث جلبة شديدة ، أو تمر موسيقى أمام البيت بطبلها وزمرها ، فلا تستيقظ من نعاسها ، أما اذا تحرك ابنها الرضيع فى مهده حركة خفيفة ، أو بكى بصوت منخفض ، هبت من نومها مذعورة . فما الذى آثر عندها هذا الصوت الخافت على مئات الأصوات التى تقرع أذنها ؟ الا أن يكون هناك قوة فعالة تعرف كيف تختار من المؤثرات ماهو صالح ملائم .

خذ مثلا آخر يدلك على إيجابية العقل فى الادراك . أنظر الى هذين الرقمين ٣ ، ٢ : وأجر فيهما عملية الجمع ، تسارع الى ذهنك النتيجة وهى خمسة ، ثم أقرأهما ثانية معتزما اجراء عملية الضرب تجىء الى ذهنك نتيجة أخرى هى ستة . هاتان فكرتان أو نتيجتان مختلفتان نشأتا فى الذهن من باعث واحد ، وكان السبب فى اختلافهما اختلاف الغرض الذى توجه به الذهن نحو ذلك الباعث ، ويتضح من هذا أن العقل ليس مجرد آلة « كمرة » تلتقط الاحساسات كما هى ، وعلى رغم أنفها ، ولكنه قوة تدعو من البواعث ما تريد . ثم تفكر فيها بأشكال مختلفة . وهو يستعين فى هذا التفكير بالغرض الذى يوجهه الى المؤثرات الخارجية .

ولما كان لا مندوحة للعقل عن أن يفرض مكانا وزمانا يسند اليهما أثر الاحاسيس المختلفة . لانه لا يستطيع أن يتصور مدركات مطلقة ، فليس فى مقدوره مثلا أن يفهم اللون الابيض مجردا عن « مكان » ولا أن يدرك حادثة الا اذا نسبها الى « زمان » الى ماض أو حاضر أو مستقبل ، أقول لما كان لا مندوحة له عن فرض الزمان والمكان لفهم المادة التى تقدمها له المؤثرات الخارجية . اخترعهما اختراعا ، فهما ليسا حقيقتين فى ذاتهما . أى ليس فى الوجود الخارجى زمان ولا مكان ، انما خلقهما العقل ليتخذهما وسائل للادراك ، وسبيلا لصب المعانى فى المحسات .

شرحنا فيما سبق كيف تنتقل الاحساسات المنبعثة من الاشياء الخارجية الى ادراك ، ونريد الآن أن نوضح الخطوة الثانية التى يجتازها العقل فى أداء وظيفته ، عند الانتقال من هذه المدركات الى مرتبة المعقولات أى تصور العلاقات الكائنة بين أجزاء الوجود بعضها ببعض ، وبعبارة أخرى تلك الخطوة التى يخطوها العقل من مرحلة التجارب الجزئية الى العلوم الكلية . فكما أن للعقل قوة يتمكن بها من تنظيم البواعث المختلفة فى قالب المكان والزمان ، فيدرك بذلك معنى الاشياء ، كذلك له قوة أخرى ، تجىء بعد هذه ، وهى التى تنظم تلك المدركات فى قوانين عامة ، كقانون السببية ، وقانون الجاذبية ، وما الى ذلك من النواميس التى تبوب على أساسها معلومات الانسان ، وهذه العملية هى كنه العقل وطبيعته ، فالعقل عبارة عن عملية تنظيم التجارب وتبويبها ، وهو فى هذا التبويب والترتيب ايجابى فعال ، وليس كما توهم لوك وهيوم قطعة من الشمع اللدن التى تشكلها التجارب المختلفة والا فهل تستطيع أو تتصور الوحدة الفكرية التى تشتمل على فلسفة (ارسطو) ، والتى تكونت ولا ريب من جزئيات أتته عن طريق التجربة والحواس هل تستطيع أن تتصور ان تلك الجزئيات قد نظمت نفسها بطريقة آلية حتى بدت متماسكة فى فلسفة متحدة ، دون أن يتدخل العقل فى ذلك التنظيم ؟

تخيل ان بطاقات دار الكتب قد انتثرت فى غرفها واختلطت ألفها ببائها ، فهل تصدق ان هذه البطاقات تستطيع أن تجمع نفسها وترتب صفوفها ، وتسلك طريقها الى قطراتها فى نظامها الابجدى ؟ !

هل يمكن ان يتم ذلك دون أن يتدخل الانسان ويتناولها بالترتيب؟؟

كذلك حال العقل مع المدركات ، فهي في الكون شتيت متضارب ، وهي تصل الى الذهن في هذه الفوضى : ألوان متباينة ، وأصوات مختلفة ، وأذواق عدة ، وأشكال متنوعة ، فيأخذ العقل في ترتيبها وتبويبها حتى ينتهي بها الامر الى هذه العلوم المنظمة المنسقة ، وبديهي ان هذا التنسيق لم ينبعث الينا من الاشياء الخارجية نفسها ، وإذن فقد أخطأ لوك كل الخطأ حين زعم ان العقل سلبي ، تنقش فيه التجارب بطريقة آلية ، فاذا لم يكن الامر كذلك فهل يستطيع لوك ان يبين لنا كيف ان التجارب الواحدة تؤثر في مجموعة من الرجال ، فتخرج منهم هذا الغبي وذاك الفيلسوف ؟

كلا! لا ندحة عن التسليم بايجابية العقل وقوته في تكوين المدركات من الاحساسات أولا ، ثم في تكوين المعقولات من المدركات ثانيا .

وان صح هذا التحليل ، فيكون العالم كما نعرفه من تكوين عقولنا وصنعها ، فنحن لا نعلم عن الاشياء الخارجية الا مظاهرها التي تنتقل الينا ، وليس في مقدورنا أن نتغلغل في بواطنها ، وقد تكون هذه الصورة الذهنية التي كونتها عقولنا عن العالم الخارجي بعيدة جدا عن الحقيقة في ذاتها ، فنحن لا نعلم عن القمر مثلا الا ما انبعث الينا منه من احساسات زائدا ما عملته عقولنا في تلك الاحساسات ، فتكونت لدينا من هذا المزيج صورة عقلية عن القمر ، أما ان هذه الصورة العقلية تطابق الواقع أو لا تطابقه ، فلا يستطيع البشر أن يجيب !

وهكذا أثبت (كانت) وجود المادة ، الا انه انكر ان تكون فكرتنا عنها على مثال الحقيقة الواقعة .

ثم يعود (كانت) بعد ذلك فيرفض ما زعمه لوك من أن العقل يولد كالصفحة البيضاء ، ويؤكد في يقين انه انما يرث شعوراً لا يأتيه عن طريق التجربة والحواس ولابد لكل انسان أن يسلم بوجوده ، هو ذلك الشعور الذي يدلنا على ان هذا خير وذاك شر ، هو ذلك الشعور الذي لا يفتأ يؤنبك اذا نبوت عن جادة الخير ويطمئن مادمت سالكها ، هو ذلك الشعور الذي نحس من أعماقك انك لو اتبعت ما يمليه عليك ، وحذا حذوك البشر أجمعون ، لكان الخير كل الخير . ذلك الشعور الذي يقف لك بالمرصاد والذي يولد معك . هو الضمير . ومن ذا الذي يستطيع أن ينكر هذا الصوت الواضح الجلي الذي يضيق للشر ويطمئن للخير . فأنت قد تكذب . وقد تنهب حقوق غيرك . ولكن لا يسعك الا الاعتراف ولو أمام نفسك ان هذا خطأ ولو خيرت لما رضيت أن يسود الكذب والسلب بين الناس . وكل انسان على الأطلاق يحمل بين جنبيه هذا الوازع الذي لا تأخذه عن أعمالك سنة ولا نوم ، والذي يملي على صاحبه في غير لبس ولا غموض ما يجوز عمله وما لا يجوز .

وهذا الخير الذي يمليه الضمير انما يقصده لذاته على الرغم من انه قد يتضارب مع صالح الفرد تضاربا صريحا . فالمثل الاعلى الذي يصبو اليه هو اداء الواجب دون النظر الى السعادة الشخصية .

ووجود الضمير دليل قاطع على ما للانسان من حرية الارادة لأن معنى رقابته أن الانسان يستطيع أن يسلك هذا السلوك أو ذاك ولو كان الانسان مرغما على أن يسير في طريق مرسومة لما كان لهذا الضمير فائدة . وكذلك يدل وجود الضمير على خلود الروح . ذلك لان الحياة الدنيوية لا تأخذ المجرم بالقصاص في كل الاحيان ، لا بل تضرب لنا الحياة آلاف الأمثلة بأن الشر هو السبيل الى السعادة الشخصية ، تعلمنا الحياة أن نفكر بالآخرين وأن من لا يظلم الناس يظلم ، ولكننا على الرغم من ذلك ننشد الخير وننبذ الشر ، فهذا الشعور لم يستمد من الحياة طبعا ، فمن أين جاءتنا تلك النزعة للخير اذا لم نكن نعلم في أعماقنا أن هذه الحياة الدنيا ليست كل شيء ، بل هي جزء من حياة ثانية خير وأبقى من الأولى ، وأن هذا الطيف الزائل ليس الا مقدمة لبعث جديد ؟

ثم يستطرد (كانت) في هذا المنطق ، حتى يصل الى اثبات وجود الله عز وجل ، لانه اذا كان الشعور بالواجب الذي يمليه الضمير يتضمن الدليل على حياة أخرى خالدة تجزى كل امرئ بما قدمت يداه ، فهذا الخلود ناشيء بالضرورة عن سبب يلائمه ، كي تتكافأ العلة والمعلول ، أو بعبارة أخرى لا يمكن أن تتفرع الحياة الخالدة الا عن إله خالد .

هذا هو البناء الشامخ الذي شيده كانت ، ولا يزال قائما في عالم الفلسفة تعمل فيه معاول الهدم فلا تنال منه الا كما تنال الريح الهينة من الجبال الشم الرواسخ ، وعلى الرغم من أن كتاب القرن التاسع عشر حاولوا أن ينقضوا رأيه في الاخلاق والدين فقال قائل أن ليس ثمة ضمير يملي الخير ، لان الخير ليس مطلقاً فما هو خير اليوم قد يكون شرا غدا ؟ وسخر ناقد من منطق (كانت) في اثبات وجود الله ، فقال انه « كالحاوي » الذي يخرج من قبعته الفارغة ما يشاء ، يريد بذلك انه انتزع نتيجة من مقدمات لا تؤدي الى ذلك . أقول على الرغم من ذلك جميعا فلا يسعنا الا أن نطأطيء الهامات اجلالا له وا كبارا .